

American University in Cairo

AUC Knowledge Fountain

Faculty Journal Articles

Fall 2022

المراة في خطاب التنوير عند جابر عصفور Al-Mar'a fi khitab al-tanwir 'ind Gaber Asfour

Ferial J. Ghazoul

The American University in Cairo (AUC), fghazoul@aucegypt.edu

Follow this and additional works at: https://fount.aucegypt.edu/faculty_journal_articles



Part of the Arabic Language and Literature Commons

Recommended Citation

APA Citation

Ghazoul, F. (2022). المراة في خطاب التنوير عند جابر عصفور Al-Mar'a fi khitab al-tanwir 'ind Gaber Asfour. *Fossoul*, 108, 475–483.

https://fount.aucegypt.edu/faculty_journal_articles/4978

MLA Citation

Ghazoul, Ferial J. "المراة في خطاب التنوير عند جابر عصفور." Al-Mar'a fi khitab al-tanwir 'ind Gaber Asfour. *Fossoul*, vol. 108, 2022, pp. 475–483.

https://fount.aucegypt.edu/faculty_journal_articles/4978

This Research Article is brought to you for free and open access by AUC Knowledge Fountain. It has been accepted for inclusion in Faculty Journal Articles by an authorized administrator of AUC Knowledge Fountain. For more information, please contact fountadmin@aucegypt.edu.

فصول

مجلة النقد الأدبي | فصلية محكمة

محور العدد
مقاربات نقدية

العدد (108) * خريف 2022



العدد (108)

خريف 2022



الجمعية السعودية للدراسات اللغوية
2022

المرأة في خطاب التنوير:

جابر عصفور نموذجا

فريال جبوري غزول*

«والتنوير... لا يعني مجرد العودة إلى مبادئ التنوير التي تأسست في القرن الثامن عشر [في أوروبا].... لما أُطلق عليه عصر الأنوار الذي انطوى على مجموعة من المبادئ الفاعلة التي لا تزال قابلة للحضور والاستمرار، خصوصاً في ما تنطوي عليه من نزعات عقلانية وتحررية، لا تفارق النزعة الإنسانية، في شبكة علائقية مفتوحة دائماً على متغيرات الزمان والمكان والبشر. فالتنوير- من هذا المنظور- هو أفق مفتوح، لا ينغلق قط، ولا يحصر نفسه بحدود القرن الثامن عشر، وحتى وإن تأسست فيه مبادئه الأساسية مفهوماً، فالتأسيس نفسه لم ينطو على الانغلاق، وإنما على النقيض الذي يجعل التنوير كالحداثة مشروعاً غير مُنته، إذا استخدمنا عبارة هابرماس، أو مشروعاً يظل في حالة صنع، ما ظلت البشرية في حاجة إلى العقل والحرية والتقدم»^[1].

كانت المرأة قضية محورية في مشروع النهضة، بدءاً برواد التنوير رفاعة رافع الطهطاوي، والإمام محمد عبده وقاسم أمين وغيرهم، بالإضافة إلى الرائدات، ومنهن: عزيزة أمير وملك حفني ناصف وروزاليوسف. وبعد انطلاق النهضة، استمر مسارها تقدماً ونكوصاً، وتبناها مفكرون ومفكرات، أصبحوا وأصبحن، أيقونات في المسيرة التنويرية، من طه حسين إلى جابر عصفور ونصر حامد أبو زيد، ومن مي زيادة إلى لطيفة الزيات ونوال السعداوي، على اختلاف المشارب وكيفية تناول قضية المرأة.

وللتنوير تعريفاتٌ متنوعة. ننتقل من تعريف جابر عصفور لمفهوم التنوير الذي فصله في مقالة «الناقد التنويري» في كتابه (تحديات الناقد المعاصر):

* أستاذ الأدب المقارن - الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

5. (إضاءات)، 1994.
6. (أنوار العقل)، 1996.
7. (الرواية والاستنارة)، 2011.
8. (دفاعاً عن التنوير)، 2013.
9. (التنوير والدولة المدنية)، 2013.
10. (دفاعاً عن العقلانية)، 2020.

كان التنوير في أعمال جابر عصفور الدافع المشترك في مسيرته الثرية عبر دراسات أكاديمية وعروض صحفية وإدارة مواقع ثقافية.

يُعرف جابر عصفور (1944- 2021) بوصفه ناقداً متميزاً درّس في جامعات مصرية وعربية وأوروبية وأمريكية، ألّف دراسات عن التراث والحداثة وترجم نصوصاً في النقد الأدبي إلى العربية. ساهم في الصحافة المصرية والعربية وتولى منصب الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة في مصر (-1993 2007)، كما أسس المركز القومي للترجمة وتولى رئاسته (2007-2011)، وساهم في إنشاء «فصول: مجلة النقد الأدبي» وعكف على مسئوليتها. واستوزر مرتين: في المرة الأولى (2011) واستقال بعد عشرة أيام، وفي المرة الثانية تولى وزارة الثقافة بضعة أشهر (2014-2015). ومما لا شك فيه- سواء اتفق الآخرون معه أو اختلفوا- أنه قامه نقدياً معتبرة، ومثقف عضوي، جمع بين دقة الباحث وعمق المفكر وموسوعية العلامة، كتب للمتعم والمعلم والعالم، للأول بأسلوب سهل وشيق، والثاني بأسلوب علمي وجدلي.

يجدر بنا أن نشير موقف جابر وموقعه من السلطة أو تحديداً من الحكومة، فقد تبوأ مناصب حكومية رفيعة مما جعل البعض يرى في ذلك انتقاصاً من معارضته لسلطة تنقصها المصداقية، متماشياً أو غاضباً النظر عن حكمها الفاسد. ورُبّ قائل إن

ويستدرك جابر عصفور موضحاً مفهومه للعقلانية التنويرية، فهي لا تقتصر على ما هو «عقلاني»، بل تتأمل وتشرح الإبداعات السريالية واللا شعورية والصوفية باحثة عن «النظام في الفوضى»^[2].

من هنا نرى كيف يحزر جابر عصفور مفهومه للتنوير من موقعه في قارة معينة، ومن مولده في تاريخ محدد، ليجعل منه حركة تتجاوز أوروبا والغرب ولا تتوقف عند قرن مضى، فهي إذن مستمرة في كل مكان وزمان متاح لها، كما أنها لا تقتصر على التعامل مع ما هو عقلاني فحسب، بل تستبطن ما هو فوق العقلاني، أو ما يبدو غير عقلاني، لتكتشف بنيته ونظامه. إنها مسار منفتح لا ينقوض؛ إنها مشروع يجدد ذاته باستمرار، ويؤكد جابر عصفور أهمية توظيف العقل وتأطير الحرية والسعي نحو الأحسن في المشروع التنويري الذي يلتزم به.

يرى جابر عصفور ثلاثة عوائق للتنوير، ترتبط كلها بما يطلق عليه «القمع»، فالقمع السياسي تمارسه السلطة المستبدة، والقمع الديني يمارسه التأسلم والدين الراض للاجتهاد، والقمع الاجتماعي الذي تنتجه البطيركية بتقاليدها^[3]. يدعو إذن إلى ثقافة تسمح بإتاحة الفرصة لكل المواهب والقدرات، فهو يرى في المعرفة حقاً مشروعاً لكل مواطن ومواطنة، واهتمامه «بثقافة الاستنارة والعقلانية والحرية الفكرية والإبداعية.. هو الدافع إلى تأليف كتب عن التنوير والاستنارة»^[4].

ونجد مصطلح التنوير بتصرفاته المختلفة واشتقاقاته المتعددة ودلالاته المتنوعة في الكثير من كتبه:

1. (التنوير يواجه الإلزام)، 1992.
2. (محنة التنوير)، 1992.
3. (دفاعاً عن التنوير)، 1993.
4. (هوامش على دفتر التنوير)، 1993.

وهكذا لم يكن جابر عصفور مهتماً بجاه المنصب بقدر ما كان مهتماً بالإمكانيات التي يطرحها المنصب في سبيل الثقافة التنويرية، وتساءل: كيف تعامل جابر عصفور مع قضية المرأة وتمكينها، وعلينا أن نفصل المصطلحات النقدية التي استخدمها في كتاباته النسوية، ومنها مصطلحات رئيسيان، يتم تداولهما ويحرص على تعريفهما منعاً للالتباس وهما مصطلح الإبداع ومصطلح ما عرف في الرطانة النسوية بالجنندر أو الجنوسة أو النوع الاجتماعي.

وبدءاً بالإبداع ندرك أنه لم يقتصر على مفهوم الإبداع الأدبي أو الإبداع الجمالي، بل تجاوز المفهوم الضيق للإبداع إلى مدلوله الأوسع، قائلاً:

«تأكيداً لحرصنا.. على شمول معنى الإبداع واتساع مدلولاته لتشمل كل فعل ابتكاري خلاق، يسهم في توسيع الآفاق، وفتح الجديد الواعد من الإمكانيات، في كل مجال من مجالات الحياة، فالإبداع لا يقتصر على الفنون والآداب وحدها، وإنما يجاوزها إلى العلوم الطبيعية والإنسانية، مقترناً بالابتكار والاختراع.. بل إن الإبداع يجاوز العلوم إلى الحياة في كل تواصلها، فيرادف القدرة على ابتداء حلول للمشكلات العملية المطروحة في كل وقت»^[6].

ويعي جابر عصفور أن مسألة الإبداع ليست صدفة أو إلهاماً أو موهبة مجردة عن السياق، بل هي في صميم الواقع بكل مشاكله من قمع ولا مساواة، وبالتالي لا ينفصل تحقق المرأة عن ظروفها وتكاملها مع حرية الرجل:

«وأ تصور في النهاية أن عبء توسيع آفاق المشاركة الاجتماعية والسياسية لا ينفصل عن توسيع آفاق مشاركتها الثقافية والإبداعية.. حرية المرأة لا يمكن فصلها عن حرية الرجل، واكتمال حرية المرأة يعني اكتمال حرية الرجل، فكلاهما جناحاً للحركة الخلاقة للمجتمعات التي تريد مستقبل التقدم»^[7].

موقف جابر عصفور من المرأة ينطلق من مؤازرة نسوية الدولة كما مارستها سوزان مبارك وقبلها جيهان السادات، وقبل ذلك جمال عبد الناصر، الذي دعا إلى عدم التمييز القائم على النوع الاجتماعي، ومنح المرأة حق التصويت عام 1956.

لم يتهيب جابر عصفور من مشاريع الدولة التي تصب في الثقافة، ولم يقف معارضاً لها كما فعل صنع الله إبراهيم عندما رفض جائزة قيمة تقدمها حكومة لا توفر لشعبها أبسط المتطلبات. كان جابر عصفور يرى- كما يقول المثل الدارج- أن «كل الطرق تؤدي إلى روما»، وأن المثقف يمكن أن يتعامل مع السلطة القائمة بكل عيوبها عندما تفتح مجالاً أوسع للثقافة والتثقيف؛ فسيل التقدم والإبداع قد تأتي من مشاريع حكومية يديرها مثقفون من أمثاله. هذا مع العلم أن جابر عصفور لم يكن يحب الجانب الإداري، وكان يسعى إلى متعة البحث، لا بيروقراطية الإدارة. وأذكر أنني طلبت منه أن يكون عضواً في الهيئة الاستشارية لمجلة علمية يصدرها قسم الأدب الإنجليزي والمقارن في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، هي «ألف: مجلة البلاغة المقارنة»، فأجابني موافقاً، لكنه اشترط ألا تكون له مسؤوليات إدارية. ويذكر جابر غبطته عندما يتخلص من هموم الإدارة:

«قضيت أكثر من أسبوعين خارج الوطن، تركت مكتبي، وسعيت إلى استعادة الباحث الناقد الذي أكاد أفقده أحياناً وسط زحام العمل الإداري الذي ابتليت به، والذي يدفعني إلى كره كل عمل إداري. ولكن ماذا أفعل؟ لا بد مما ليس منه أحياناً. ولا بد من تحمل هذا العمل الرذيل لتحقيق المشروعات الثقافية التي يمكن أن تسهم في تعميق الوعي وتوسيع دوائر الاستنارة. وتأتي الدعوة إلى مؤتمر أو ندوة بإجازة مفرحة من العمل الإداري ومناسبة بهيجة لاستعادة الناقد الباحث استعادة كاملة»^[5].

ومجاز جابر عصفور عن جناحي التقدم يشي بأهمية الانطلاق لجميع أفراد المجتمع، ذكوراً وإناثاً. وهو يعي أيضاً فداحة تمكين الذكورة على حساب المرأة في سياق تقاليد أبوية.

ويعترف جابر عصفور ضمناً بأنه لا شعورياً يغلب الرجل أحياناً على المرأة في بحوثه. ففي مقالة له بعنوان «ذاكرة ذكورية»، يذكر أنه اجتمع باحثة سعودية تكتب رسالتها الجامعية في موضوع السيرة الذاتية، فقدّم لها رأيه، ذاكراً سيراً ذاتية عديدة. حينذاك سألت الباحثة: «لماذا لم تذكر سيرة نسائية واحدة في كل ما كتبتة عن السيرة الذاتية تطبيقاً ونظرياً؟»^[8]. يتفق جابر مع الباحثة في أن كتابه (زمن الرواية) يخلو من ذكر سيرة ذاتية نسائية ويضيف:

«واستغربت هذا الموقف الذي لم أتعلمه بالقطع، ولكنني انتهيت إليه دون أن أشعر، محكوماً بعوامل كامنة في لا شعوري الثقافي وتكويني اللاواعي، وقلت للباحثة: معك حق في ملاحظتك الصحيحة التي أعتزف بأنني لم أفكر فيها من قبل، ولم أنتبه إليها إلا مع سؤالك الذي دفعني إلى التفكير فيها، ويدفعني - الآن - إلى مساءلة نفسي عن الدوافع التي دفعتني إلى ذلك»^[9].

وهو يعترف أن السيرة الذاتية الذكورية هي المهيمنة نقدياً في عمله، فقد كتب تراجم ذاتية لطفه حسين وأحمد أمين ومحمد حسين هيكل وزكي نجيب محمود وإحسان عباس وإدوارد سعيد، مستنتجاً أن الحضور الذكوري المهيمن، سواء في الأدب أو الفن، يؤكد التمييز ضد المرأة وتهميشها ووضع العوائق في سبيل إدراجها في أرشيف السيرة والأدب.

إن هذه الواقعة تدل على أدبيات الحوار وأخذ جابر عصفور بنظر الاعتبار مقولات ممن هي أصغر منه مكانة وعلماً، مما يشير إلى نهجه في التدريس واتخاذ طلابه محاورين، لا تابعين. لقد وظّف نقد

الباحثة لكي يعيد النظر في مسلماته ونقص كتاباته عن المرأة والتي قام بها فيما بعد، سواء كتابته عن المرأة الشاعرة أو المرأة القاصة، أو المرأة الروائية، أو المرأة البرلمانية، ليعوّض عن لاوعيه الذكوري، فتقبل جابر عصفور للنقد برحابة صدر جعله يتعلم من أساتذته ومن طلابه ومن زملائه، ويفكر ملياً في كل جديد وافد أو قديم تراثي.

وبما أن النسوية جاءت بمصطلحات جديدة، فقد اجتهد جابر عصفور في ترجمة مصطلح «الجندر»، المستخدم معرباً في الصحافة، ومصطلح «الجنوسة»، المستخدم في مجلة «ألف»، وفي بعض الأعمال البحثية والمترجمة، ومصطلح «النوع الاجتماعي»، كما يُستخدم في منشورات هيئة الأمم المتحدة.

في مقالة له بعنوان «نسايات» وليس «نسويات» صاغ مصطلح «الهوية الجنسية»، وكان اختياره ينبثق من إدراكه أن المصطلح يحدد الهوية جنسياً التي يمكن أن يكتسبها الرجل أو المرأة من السياق الاجتماعي الذي يفرض صفات غالبية على الكائن، مثل صفة الرجولة الفذة أو الأنوثة المستضعفة، وبالتالي فالهوية الجنسية تتشكل انطلاقاً من ممارسة اجتماعية متأصلة في الثقافة البطريركية التي ترسخ الاتباع لا الإبداع. وبالتالي فهي لا تشير إلى الجانب الفيزيقي من ذكر وأنثى بل إلى الجانب الذي يحوي الذكورة والأنوثة في قالب ثقافي وحضاري. وبناء على ذلك تجاوز الهوية الجنسية «المعنى الضيق للجنس إلى الصفة الجنسية المكتسبة بواسطة الممارسة [الاجتماعية]»^[10].

وانطلاقاً من قناعة جابر عصفور بأهمية نقل المرأة من حيز الأطراف والتهميش إلى حيز المركز والمحور قدّم دراسات ومقدمات ومراجعات عديدة لنساء متميزات، غير مقتصر على الإبداع الأدبي وإن كان معظمها يدور في مجال اختصاصه للأدب. كتب جابر عصفور مقدمة كتاب عن ليلي تكلا، عنوانه

أنه كتب تحليلًا دقيقًا عن شاعرية نازك الملائكة في كتابه (رؤى العالم)^[11]، كاشفًا عن النقلة التي قامت بها الشاعرة العراقية الرائدة من الرمزية الرومانسية إلى الرمزية الصوفية في شعرها. وقد حضر جنازتها متأثرًا عندما توفيت في القاهرة عام 2007، وكتب مقالة مؤثرة عنها بعنوان «ذكريات عن نازك الملائكة» في كتابه (تحولات شعرية)^[12]، يذكر فيها أول لقاء معها في مكتب أستاذه سهير القلماوي في جامعة القاهرة، كما عكف على نشر مؤلفات نازك الملائكة الشعرية والنثرية والنقدية في أربعة مجلدات.

وقد دعم جابر عصفور قضية المرأة إبداعيًا وثقافيًا من موقعه الإداري بإقامة مؤتمرات مخصصة لها وإعلاء صوت الناشطات. لقد أشرف على مؤتمر «مئة عام على تحرير المرأة العربية» احتفالًا بمرور قرن على صدور كتاب قاسم أمين (تحرير المرأة) الذي صدرت طبعته الأولى عام 1899، ويقول:

«وقد تصورت أن مناسبة كهذه لا يمكن أن تمر مرورًا عابرًا، وأنا لا بد أن نحتفل بها احتفالًا قوميًا كبيرًا يليق بدلالاتها في التاريخ العربي الحديث، فمرور قرن بأكمله على صدور أول كتاب يناهض بتحرير المرأة العربية ليس الحدث الذي يمكن إغفاله أو التهوين من شأنه»^[31].

ويوصفه مقررًا للجنة الثقافة والإعلام في المجلس القومي للمرأة في مصر ساهم في مؤتمر «القمة الأول للمرأة العربية» الذي أقيم في القاهرة بمشاركة عربية بما في ذلك جامعة الدول العربية في عام 2000 وقدم فيه ورقة بحثية، ورأى في جمع «السيدات الأول على مستوى الوطن العربي» تأكيدًا لـ «الإرادة القومية للمرأة العربية»^[14]. كما أنه حضر مشاركًا في مؤتمر عقده المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة بعنوان «المرأة العربية والإبداع» عام 2002.

ويرى جابر عصفور أن المرأة حققت الكثير في هذه المؤتمرات خلال سنوات ثلاث:

(المرأة المصرية المعاصرة في البرلمان)، وصدر الكتاب بمناسبة مرور نصف قرن على دخول المرأة في البرلمان المصري، وقد أشاد بإنجازاتها:

«لها في مجلس الشعب إنجازات رائدة؛ فقد كانت أول من طالب بإنشاء نظام للمعارضة، وأول المتحدثين في حرية الصحافة، وأول من طلب مناقشة قضايا البيئة، إلى جانب دعوتها لإنشاء محاكم الأسرة، ومنح الجنسية لأبناء الأم المصرية.. والقائمة طويلة».

ومما يجدر ذكره في هذا السياق هو تراسل هذه الإنجازات مع طموح جابر عصفور، كما أن الاستشهاد الاستهلاكي في الكتاب، المقتبس من كتاب ليلى تكلا بعنوان «لماذا المرأة؟ ولماذا الآن؟»، يصور موقف صاحب التقديم من قضية المرأة:

«إنها ليست قضية مواجهة بين رجل وامرأة، إنها قضية مصر التي تعتر بشموخها، وتؤمن بقدرات كل مواطن فيها، وتسعى لإثراء مستقبل الأجيال القادم بعطاء كل فرد رجلًا كان، أو امرأة».

وكان جابر عصفور من الأعضاء المؤسسين للمجلس القومي للمرأة، ومدح دور ليلى تكلا في هذا المجلس، وهو يرى فيها القدوة ويربط بينها وبين مفكري النهضة، مُصِرًا على أن الارتقاء والتنمية لا يتمان إلا بتحرير المرأة التي تشكل عند تقييدها تعطيل نصف طاقة المجتمع.

وقد كتب جابر عصفور مقالات عن مجموعة من الأدبيات المصرية والعربية إيمانًا منه بتقاطع تقدم المرأة المصرية بتقدم المرأة العربية من كل الأقطار، فكتب عن أعمال رضوى عاشور وعلوية صبح التي قدمت شخصيات نسائية فاعلة في كتابه (المقاومة بالكتابة) وله عروض في كتابه (متعة القص) عن نعمات البحيري وأهداف سويف وميسون صقر وبشرى خلفان وجوخة الحارثي وكثيرات غيرهن، كما

ونستخلص من كتابات جابر عصفور عن قضية المرأة أموراً ثلاثة: أولها وأهمها هو الرد على من يرفضون فكرة المساواة بين الجنسين باعتبارها فكراً وافداً لا ينتمي إلى الحضارة العربية والإسلامية، وثانيها هو حضور المرأة الرائدة في قضيتها حتى قبل كتابات الرواد. وأما الأمر الثالث فهو وجود تيارين في الحضارة العربية أحدهما عقلاني والآخر لا عقلاني ويصعد التيار الأول العقلاني في سياق التمكن الحضاري، كما يصعد التيار الثاني اللا عقلاني في سياق تفكك حضاري، فالأزمات الحضارية تؤدي إلى الانتقاص من المرأة كرد فعل داخلي على الهزيمة، ويرى جابر أهمية تحرير صورة المرأة بإحياء ذاكرتها في التاريخ العربي، ويشير إلى ما قام به المؤرخ عماد أبو غازي والأستاذة الجامعية والناشطة النسوية هدى الصدة في استرجاع دور المرأة ومقاومتها سياسياً منذ الغزو الفرنسي. فما يرمي له جابر عصفور هو إبراز صوت المرأة الخافت وصورتها المتوارية كي تحتل مكانتها في المخيال الجمعي، إنه يظهر ما خفي وما استتر من إمكانيات المرأة.

وعند متابعة مسيرة جابر عصفور نجد أنه بدأ أكاديمياً مركزاً على التراث الأدبي والنقدي القديم مؤلفاً كتباً مثل (الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب) الصادر عام 1974، و(مفهوم الشعر: دراسة في التراث النقدي) الصادر عام 1978، و(قراءة التراث النقدي) الصادر عام 1991 وما قبلها (المرايا المجاورة: دراسة في نقد طه حسين) المنشور عام 1983، الذي يرجع فيه إلى رؤية طه حسين في الأدب القديم والجديد وفي كتاباته الإبداعية.

وقد حرص جابر عصفور على استقراء المرأة في التراث في أربع مقالات في كتابه (نقد ثقافة التخلف) في فصل «اضطهاد الأنثى». ففي مقالته عن «الأنوثة المقموعة» يفصل لغويًا كيف أن الكتابة (بالتاء المربوطة) تحمل علامة الأنوثة، قائلاً: «أنوثتها لا تفارق معناها اللغوي»^[17].

«فقد اكتسبت المرأة مواقع جديدة بنضالها الذي هو في حد ذاته شكل من أشكال الإبداع، وتغيرت بعض تشريعات الأحوال الشخصية في بلدنا وبلدان أخرى لصالح المرأة، فزال بعض الغبن الذي تعاني منه النساء العربيات، واتسعت مساحة ما لهن من حقوق مشروعة وشرعية»^[15].

ونرى عبر هذه الفقرة كيف يوفق بين النضال والإبداع ولا يرى في التشريعات الجديدة نهاية المسار وإنما خطوة نحو الأمام.

ويمكن اعتبار مقدمة جابر عصفور لكتابه (دفاعاً عن المرأة) مفتتحة ومفتاحاً لموقفه. ففي مقدمته «من تاريخ المرأة العربية» يؤكد إعلاء شأن المرأة في الإسلام وفي التراث، أو على الأقل هناك نماذج إيجابية عن المرأة ويعطي الجارية تودد نموذجاً حيث «تفوقت -- في حكايات ألف ليلة العربية -- على كل علماء زمنها في بغداد القديمة»^[16]، كما يذكر مساهمة المرأة في المجالات الرسمية، فكانت محتسبة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ورئيسة محكمة مثل أم الخليفة المقتدر، وهنا يذكر نساء وصلن إلى مناصب مرموقة يتولاها رجال على العموم، ولا ينكر جابر عصفور وجود تيار متمزم ومُشكك في قدرات المرأة يقابله تيار عقلاني في الحضارة العربية يسجل حضور المرأة في كتاب الطبقات، في فصول مثل «أخبار النساء» و«تراجم النساء»، كما يؤكد انطلاق دعوة تعليم المرأة من الأزهر على يد الشيخ رفاع الطهطاوي الذي يرى فيه «استعادة عقلانية الحضارة الإسلامية في تكوينه الفكري».

كما يكشف في رصده عن أن قاسم أمين لم يكن أول رائد في قضية المرأة، فقد سبقته جليلة تمرهان غير المعروفة التي تخرجت في مدرسة المولدات وكتبت مقالات طبية، بالإضافة إلى هند نوفل التي أصدرت أول صحيفة نسائية بعنوان «الفتاة» في عام 1892.

ينطوي على نظرة تستريب في المغاير أو الآخر، في مستويات العقيدة والعرق والطبقة والجنس، وتنفّر من الاختلاف والتعدد والتنوع^[21]، حيث إن تحيزه يعمل في الحفاظ على التراتبية الاجتماعية ومنها دونية المرأة. ويفند جابر عصفور الكثير من هذه المرويات، مستعيناً بدراسات محققين علامة، وينتهي إلى اقتران المرأة بالأفعى وبالشر عند المتحيزين، وأهم ما يضيفه جابر هو ربطه بين الكتابة أو الثقافة الكتابية بالمدينة وتعقد اقتصادها وتنوع مجتمعها مما أراح الثقافة الشفوية التي ارتبطت بالذكورة، وبالتالي كان لا بد أن توضع الكتابة في مدار المحذور منه، كي يبقى الذكور والنخبة مهيمنين عليها، وكأن الكتابة «اكتسبت المعنى الرمزي لشجرة المعرفة المحرّمة» (ص 63).

وبعد هاتين الدراستين الموثقتين عن اللغة والمأثور اللذين لا يستوعبان إنسانية الأثني، يتطرق جابر عصفور إلى عمليين مكرّسين في التراث الأدبي، أولهما (الإمتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحّيدي وثانيهما (ألف ليلة وليلة). في مقالته «تنكير الأثني» يحيلنا الباحث إلى الليلة الرابعة والثلاثين في كتاب التوحّيدي، موضّحاً آليات التفسير اللغوي والديني المحبّطة لمساواة المرأة بالرجل، ففي محاوره شيقة يقول الوزير فيها: «لقد شرفّ الله الإناث بتقديم ذكرهن في قوله عزّ وجل ﴿يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور﴾ (الشورى: 29)»^[22].

فكان رد التوحّيدي مستنكراً هذا الاستنتاج عن شرف الأثني في القرآن الكريم، قائلاً: «قدّم الإناث كما قلت ولكن نكرة، وأخرّ الذكور ولكن عرف، والتعريف بالتأخير أشرف من النكرة بالتقديم»^[23].

فاستحسن الوزير هذا التفسير. ومما يتقاطع مع هذه النظرة للمرأة هو ما عرفه العرب من علوم الأوائل (الإغريق) التي انتقلت إلى العرب، حيث يُنقل عن ديوجانس الكلبي في الليلة السابعة عشرة أن «المرأة

ويدرك جابر عصفور أن اللغة وعاء معرفي يشكل شعورياً أو لا شعورياً تركيبنا الفكرية، فمصطلح «الكتابة» يدل على «حضور أثوي... منفعل بغيره.... فهي دلالة رهينة دال مدلوله مفعول به أو مفعول فيه أو مفعول عليه»^[18]. ويستشهد جابر بمعجم (لسان العرب) ليؤكد المعاني اللغوية التي تندرج تحت «الكتابة» ووضعها كمفعول بفعل فاعل «على نحو استجابة المملوك للمالك... والتابع للمتبع»^[19]. وبناءً على ذلك يرى في أثوية الكتابة وفحولة الكاتب صدى التقاليد الاجتماعية المتخلفة التي تتمثل الزوج والزوجة، الحاكم والرعية. ويستشهد بمقولة امرأة سعيد بن المسيب: «ما كنا نكلم أزواجنا إلا كما تكلمون أمراءكم»^[20]. ويشرح كيف تعامل النقاد القدماء مع مفهوم «فحولة الشعراء» الذي يميز بين الشعراء قيمة ومكانة باستخدام استعاري للذكورة باعتبارها علامة على التفوق ويستحضر مفهوم الفحولة بتداعياته الجنسية عند الأصمعي وما قبله وما بعده.

وأما في مقالته «لا تعلموهن الكتابة!»، فيرجع جابر عصفور إلى فضل الذكر على الأثني في المرويات المتواترة بألياتها التأويلية التي تجنح إلى الترتاب الاجتماعي وإعلاء علاقات البطيريركية، بل إن ذلك يصل إلى الاستياء من تعليم المرأة وحتى تحريمه على أساس هويتها الجنسية لا على قدراتها الفكرية. ويستحضر جابر بمعرفته الموسوعية أبي بكر الصولي الذي دعا إلى عدم تعليم الخط للنساء ونهيه عن إسهامهن في الكتابة، مستنداً إلى مرويات منسوبة.

وأما أحمد بن علي القلقشندي فيرى ضرورة صفة الذكورة في الكتابة، ويلتقط جابر عصفور التميز في موسوعة القلقشندي ضد المختلف ديناً وعرقاً بالإضافة إلى تحيزه الذكوري: «وهو تحيز

الجديدة التي رسم قاسم أمين ملامحها، أي هي المرأة التي لا تقلب معادلة الهيمنة بل تنفي مفهوم الهيمنة في العلاقات بين الرجل والمرأة.

وفي بحث جابر عصفور عن مرجعية ثقافة التخلف يكرّس دراسة عن «ابن تيمية والمرأة» في كتابه (عن الثقافة والحرية) ويرى أنها تقع عنده موقع الآخر، فهي «عورة» وبالتالي فهي أمر يخجل منه وتصبح «المرأة في حكم الأسيرة والأمة.... هكذا تصبح ولاية الرجل على المرأة مطلقة»^[29].

ولا يلوم جابر عصفور الرجل فقط لوضع المرأة في مجتمعنا وإنما يلوم بعض النساء في تقبلهن هذا الوضع الظالم، فيقول في مقالة بعنوان «أزدرأ المرأة» في كتابه (عن الثقافة والحرية):

«ولكن ليس الرجل وحده مذنباً في هذا الأمر، فمن النساء من تأدلجت عقولهن بثوابت تراث التخلف، فصرن أشدّ عداءً لتحرير المرأة من الرجال، وأكثرّ عداوة لمبدأ المواطن ولوازم مدلولاته التي تعني المساواة في كل الحقوق والواجبات بين كل المواطنين، بعيداً عن أشكال التمييز»^[30].

لقد كتب الكثير عن جابر عصفور؛ ما بين كتب ورسائل جامعية^[31]، ومعظم هذه الدراسات يتعامل مع جابر عصفور الناقد، وأردت أن أضيف في دراستي هذه جابر عصفور الناشط الثقافي المناصر للمرأة.

وخلاصة القول أن جابر عصفور يؤسس موقفه من قضية المرأة على ثلاث نقاط:

- 1- حقها في المساواة، وحقوقها بوصفها مواطنة.
- 2- ضرورة تحريرها كي يمضي قطار التقدم وتتواصل التنمية.
- 3- تفكيك صورتها الدنيا في المجتمع.

وواضح من كل هذا أن جابر عصفور يرى المرأة من خلال عدسة الوطن والمجتمع محاولاً إنصافها وتحريرها.

تلقن الشر من المرأة، كما أن الأفعى تأخذ السم من الأصلة»^[24]، والأصلة ثعبان خطير وسام. ويستطرد التوحيدي في ذم السفلة في مقطع يتجاوز فيه السفلة مع النساء مما يستدعي المماثلة بينهما. فينزل العامة منزلة النساء في آليات التراتب القمعي المفروضة على الكائنات، ويغدو الرجل نظير الحاكم في الوضع الذي يحتله بالقياس إلى المرأة. ويأتي الانتقاص من المرأة في تعبير «رأي النساء» باعتباره لا يعتد به^[25]. هذا مع العلم أن توقف التوحيدي في الآيات التي يعتبرها دليلاً على المفاضلة بين الذكر والأنثى قد جاء دليلاً على التسوية بينهما في تفسير الطبري والزمخشري والقرطبي، على سبيل الذكر لا الحصر^[26].

يرى جابر عصفور شهرزاد في مقالته «أمثولة شهرزاد» امرأة متمردة على الثقافة الذكورية تتصدى لشهريار وبطشه، تبدأ شهرزاد القص فتكون هي الحكواتية وشهريار المستمع الذي يؤجل قتلها من ليلة إلى أخرى كي تستمر في الحكى، فهي كما يرى جابر عصفور نسخة أنثوية من بيدبا الفيلسوف في (كليلة ودمنة)، «إذا كان بيدبا الحكيم.... أمثولة الكاتب في مواجهة السلطان.... فإن شهرزاد.... أمثولة موازية للمرأة في علاقتها بالرجل»^[27]، ويضيف:

«ولا يعني هذا الهدف استبدال تراتب قمعي بتراتب قمعي آخر، فشهرزاد ما كانت تسعى إلى أن تضع نفسها موضع شهريار.... أو تستبدل ببطيركية الواقع مطيركية القص. وإنما كانت تسعى إلى تحرير نفسها من سطوة الهيمنة الذكورية القمعية، وخلص بنات جنسها من العنف العاري لهذه الهيمنة، وفي الوقت نفسه تحرير السلطان من بطش القوة التي سجن نفسه في مدار فحولتها المغلق، والارتقاء به»^[28].

يرى جابر عصفور، إذن، في شهرزاد نموذج المرأة

الهوامش

- [1] جابر عصفور، تحديات الناقد المعاصر، دار التنوير، بيروت، 2017، ص 70.
- [2] المصدر السابق، ص 77.
- [3] نفسه، ص ص 78-79.
- [4] جابر عصفور، نقد ثقافة التخلف، الشركة المصرية للنشر العربي والدولي، القاهرة، 2008، ص 11.
- [5] جابر عصفور، دفاعًا عن المرأة، دار أخبار اليوم، القاهرة، 2007، ص 184.
- [6] المصدر السابق، ص 123.
- [7] نفسه، ص 120.
- [8] نفسه، ص 145.
- [9] نفسه، ص 146.
- [10] نفسه، ص 172.
- [11] ينظر: جابر عصفور، رؤى العالم، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، 2008.
- [12] يُنظر: جابر عصفور، تحولات شعرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2016، ص ص 105-113.
- [13] دفاعًا عن المرأة، م.س.، ص ص 61-62.
- [14] نفسه، ص 103.
- [15] نفسه، ص 128.
- [16] نفسه، ص 6.
- [17] نقد ثقافة التخلف، م.س.، ص 41.
- [18] نفسه، الصفحة نفسها.
- [19] نفسه، ص 42.
- [20] نفسه، الصفحة نفسها.
- [21] نفسه، ص 59.
- [22] نفسه، ص 48.
- [23] نفسه، ص 48.
- [24] نفسه، ص 49.
- [25] نفسه، ص 53.
- [26] نفسه، ص 54.
- [27] نفسه، ص 68.
- [28] نفسه، ص ص 69-70.
- [29] جابر عصفور، عن الثقافة والحريّة، القاهرة، مركز الأهرام للنشر، 2016، ص 302.
- [30] المصدر السابق، ص 298.
- [31] ومنها أطروحة ماجستير لابن الوليد يحيى بعنوان: (التراث والقراءة في الخطاب النقدي عند جابر عصفور) نوقشت في جامعة الرباط، المغرب، ونشرت في القاهرة عام 1999، وكتاب محمد زيدان (التفكير النقدي والخطاب الأدبي: دراسة في جدلية التراث والمعاصرة عند الدكتور جابر عصفور) الصادر في عمان عام 2017، وكتاب رشيد بلعفية بعنوان: (الخطاب النقدي العربي الحديث: قراءة في حلقاته النقدية.. طه حسين، شكري عياد، جابر عصفور) الصادر في القاهرة عام 2019، ومؤخرًا العدد الخاص رقم 107 من «فصول» الصادر في ربيع 2022، فيما يناهز ستمائة صفحة.